د. إلينا سوبونينا

باحثة سياسية ورئيسة مركز آسيا والشرق الأوسط للدراسات

توتر منضبط:

أبعاد الصراع على القطب الشمالي بين القوى الكبرى

أدى ارتفاع درجة الحرارة في منطقة القطب الشمالي إلى زيادة حدة الاهتمام بالمنطقة، ذلك أن ذوبان الجليد القطبي فتح الباب أمام طرق مائية جديدة، بالإضافة لإمكانية استغلال الثروات الكامنة هناك، مما يجعل التنافس عليها أمراً محتوماً، إذ إن ثمة حرباً دائرة غير معلنة، دبلوماسية حتى الآن، بين الدول الكبرى الطامعة في خيرات القطب الشمالي.

أولاً: مجموعة الخمس الكبار في القطب الشمالي

تضم هذه المجموعة الدول التي تقاسمت فيما بينها، في مطلع القرن العشرين، القطب الشمالي، وقسمته إلى خمس مناطق أساسية، نظراً لأن أراضيها تمتد إلى القطب الشمالي، وهذه الدول هي: روسيا والولايات المتحدة الأمريكية والنرويج والدنمارك وكندا، ولاتزال الخلافات قائمة فيما بينها حول عدد من القضايا أبرزها: ترسيم الحدود البحرية، وتحديد امتداد المياه الإقليمية، وبالتالي تحديد أماكن الاستغلال الاقتصادي أمام السواحل والبحار المطلة عليها، وتفتح هذه الخلافات الباب لنزاعات حادة مستقبلاً قد تتحول إلى صدامات مسلحة للسيطرة على الموارد الطبيعية، إلا أن تفاديها لايزال أمراً ممكناً.

وقد تأسس في عام 1996 "مجلس القطب الشمالي"، وهو منظمة دولية تهتم بتيسير التعاون بين الدول التي تضم حدودها أراضي في القطب الشمالي، وتضم في عضويتها الدول الخمس المذكورة سابقاً، بالإضافة إلى بلدان أخرى تقع بالقرب من القطب الشمالي، وهي إيسلندا والسويد وفنلندا وغيرها. ومن الملحوظ أن العديد من الدول تعتبر انضمامها إلى هذا المجلس يوازي في أهميته الانضمام لعضوية مجلس الأمن الدولي، إذ تبدي الكثير من دول أوروبا وآسيا اهتماماً ملحوظاً بالقطب الشمالي، وتسعى إلى الدفاع عن مصالحها في تلك المنطقة.

ثانياً: تسلل آسيوي إلى «المحفل القطبي»

وإلى جانب البلدان دائمة العضوية، ثمة أخرى تحظى بصفة مراقب في مجلس القطب الشمالي، منها على سبيل المثال، ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، بالإضافة إلى منظمات دولية، كما أنه في العام 2013 حصلت خمس دول آسيوية على صفة مراقب، هي: الصين واليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة والهند[1]، وقد كان هذا حدثاً فارقاً، إذ لم تتمتع أي دولة من خارج أوروبا بهذه الصفة من قبل، وهو ما يشير إلى اهتمامهم المتنامي بهذه المنطقة، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن الموافقة على مطالب هذه الدول بالانضمام للمنظمة استغرق سنوات عدة، فاليابان، على سبيل المثال، تقدمت بطلبها في 2009 ومنحت صفة المراقب بعد أربع سنوات.

ويرجع ذلك للصعوبة التي يجدها الأعضاء الأصليون في التفاهم فيما بينهم، الأمر الذي يعني أن دخول أعضاء جدد، ذات مصالح متباينة، يعني إثارة مزيد من الخلاف.

وقد بلغ نشاط الدول الآسيوية في مجال استكشاف واستغلال ثروات القطب الشمالي مستويات متقدمة، فالدول

الآسيوية الخمس أقامت في العقد الأخير معاهد متخصصة للبحث العلمي هناك، مثل إنشاء الصين في عام 2004 لأول محطة قطبية للبحث العلمي فوق جزيرة سبيتسبرغن، فضلاً عن إنشاء مجموعات عمل متخصصة في شؤون القطب الشمالي في وزارات الخارجية، وشركات النفط والغاز، كما تسعى الصين، وغيرها من الدول الآسيوية، إلى صياغة علاقات شراكة مع الدول القطبية، كالنرويج وروسيا وغيرهما، بغرض دراسة واستثمار منطقة الشمال القطبي.

ومن ذلك اتفاق الصينيين مع النروجيين على إجراء مشروع مشترك لدراسة المناخ في المنطقة، فيما تعوّل الشركات النفطية الهندية على العمل المشترك مع نظيراتها الروسية في استكشاف واستغلال حقول طاقة جديدة هناك، وقد كانت هذه القضية من محاور المحادثات التي ناقشها الرئيس فلاديمير بوتين أثناء زيارته الأخيرة إلى الهند في ديسمبر 2014.

ومن ناحية أخرى تعرض سنغافورة خدماتها في بناء المنصات المائية العائمة في المنطقة القطبية سواء لأغراض التنقيب أو غيرها، أما البلدان العربية، فلم تبد اهتماماً مماثلاً، وهو الأمر الذي يعد بمنزلة خطأ استراتيجي ينبغي تصحيحه قبل فوات الأوان.

ثالثاً: مساع روسية لتوسيع حدودها الشمالية

بدورها ترى روسيا، بحكم موقعها الجغرافي، أن لها الأحقية في استثمار خيرات القطب الشمالي، والتي تشكّل، بحسب مختلف التقديرات، ما بين 90 إلى 106 مليارات طن من النفط[2]، كما يكتنز القطب الشمالي احتياطياً هائلاً من الغاز الطبيعي، وتشير التقديرات إلى احتواء القطب الشمالي على 25% من إجمالي النفط والغاز[3] في العالم، بالإضافة إلى الفحم الطبيعي والمعادن الخفيفة والبلاتينيوم، كما ساهمت هذه المنطقة بحوالي 11% من الدخل الوطني للبلاد[4]، وذلك على الرغم من أنها تضم أقل نسبة سكانية في روسيا، أو 1,95 مليون نسمة من مجموع السكان الذي يصل إلى 143 مليون نسمة.

وبهدف تعزيز حقها، تسعى موسكو منذ بضع سنوات، للحصول على اعتراف رسمي من الأمم المتحدة بتوسيع حدود جرفها القاري في الشمال، إذ يجادل العلماء من فرع سيبيريا في أكاديمية العلوم الروسية بأن الجرف القاري الخاص بها يتصل بالسلاسل الجبلية تحت الماء، بما يعني أحقيتها في السيادة على ما يقرب من نصف مساحة المحيط، وإذا تمّ إثبات ذلك علمياً، فإن حدود روسيا يمكن أن تتسع لتغطي هذه المساحة، وفقاً للقانون الدولي، وبالتالي يحق لروسيا استغلال النفط والغاز في ذلك الجزء، والذي يحتوي بمفرده، وفقاً للتقديرات، على احتياطي من الطاقة يفوق 35 مليار طن، كما ذهبت التقديرات الروسية بأنه من حقها ملكية 43 من إجمالي 61 حقل نفط وغاز مستكشفاً، علماً بأن المنطقة الروسية غنية بالغاز بعكس المنطقة الأمريكية الغنية بالنفط[5].

وفي هذا الصدد، تقدمت موسكو، أكثر من مرة، بطلب لتوسيع حدود الجرف القاري إلى اللجنة الخاصة في الأمم المتحدة، لكن الطلب رُفض كونه لا يستوفي الحجج الدامغة، وقد دفع هذا الكرملين للدفع في اتجاه تجميع معطيات أكثر علمية، وذلك قبل تجديد تقديم الطلب إلى الأمم المتحدة في ربيع العام 2015، كما أعلن وزير خارجية روسيا سيرغي لافروف في ديسمبر 2014[6]، غير أن ما زاد الأمر تعقيداً هو شروع كل من الدنمارك وكندا في تقديم طلب مماثل.

رابعاً: تعزيز الوضع العسكري الروسي في القطب الشمالي

لم ترتكن روسيا على الحجج والقرائن العلمية وحدها لدعم مطالبها، إذ إنه في فبراير 2013 أقرّ الرئيس فلاديمير بوتين البرنامج الاستراتيجي – الاقتصادي – الاجتماعي لتطوير منطقة القطب الشمالي، والذي يمتد حتى العام 2020[7]، ويضم البرنامج جملة إجراءات، تهدف لتعزيز القدرة الدفاعية لروسيا عند حدودها الشمالية، وكذلك حماية البيئة والعالم النباتي والحيواني هناك.

> تبقى مخاطر اندلاع صراع مسلح أمراً مستبعداً في المدى المنظور، على الرغم من الاهتمام المتصاعد بالمنطقة، ومع ذلك، فإنه من المرجح استمرار التنافس الدولي على المكاسب الاقتصادية في تلك المنطقة، مع سعيها في الوقت عينه إلى التوصل لتفاهمات فيما بينها.

وقد أجرى الروس للمرة الأولى في عام 2014 مناورات عسكرية لمكافحة الإرهاب في أراضي القطب الشمالي والمجال المائي الشمالي لروسيا، كما تشهد السنوات الأخيرة نشاطاً روسياً ملحوظاً في تكوين الوحدات القطبية الخاصة، والتي تتمتع بمهارات قتالية تفوق قدرات القوات التقليدية، كما تجري تلك الوحدات تدريبات على عمليات الإنقاذ في حالات الكوارث التقنية أو المناخية.

وبالإضافة لما سبق، تمتلك القوات المسلحة الروسية الطائرات المقاتلة الاعتراضية، القادرة على التحليق لمسافات طويلة من طراز ميغ – 31، وكذلك القاذفات الاستراتيجية وحاملة الصواريخ تو – 95، وهي كلها قادرة على التحليق في منطقة القطب الشمالي، ولكن تبقى القوة الأساسية والأكثر أهمية في الأسطول الروسي الشمالي هي الغواصات الذرية الحديثة من طراز "أكولا" (القرش)، والتي تستطيع استهداف الغواصات والسفن المعادية[8]، ويضاف إلى ذلك تفوق روسيا في استخدام كاسحات الجليد العاملة بالطاقة الذرية، وما زال أسطول الكاسحات الروسي الأكبر والأقوى في العالم، سواء العامل بالوقود النووي أو التقليدي.

خامساً: الطريق المائي الشمالي وقناة السويس

لا ينحصر اهتمام الدول الآسيوية بالثروات الطبيعية في القطب الشمالي، بقدر ما يهمها إمكانية تقليص نفقات النقل

في حال تم استخدام طريق القطب الشمالي، وهو الأمر الذي لن يتحقق، إلا في حال استمرار ذوبان الجليد القطبي، كما ترغب الدول الآسيوية في أن تكون الرقابة على طرق الملاحة في تلك المنطقة تخضع لإشراف دولي، وليست بيد دولة واحدة في إشارة لروسيا، وتعوّل في ذلك على تأييد الولايات المتحدة لها، وهو ما يتعارض مع المصالح الروسية، التي تمر الطرق المائية بمحاذاة شواطئها.

ووفقاً للتقديرات العلمية، فإن طريق القطب الشمالي يسمح بتقليص نفقات نقل البضائع من اليابان إلى أوروبا ثلاث مرات، مقارنة بنفقات نقلها عبر قناة السويس، كما يقلص هذا الطريق حوالي عشرة أو خمسة عشر يوماً من عمر الرحلة، مما يوفر نفقات حوالي 800 طن من المحروقات للسفينة الواحدة متوسطة الحجم، ناهيك عن المصاريف الأخرى، فمساحة الطريق البحري بين مدينتي سان بطرسبورغ في شمال روسيا وفلاديفوستوك في الشرق الأقصى الروسي يقدر بـ 23 ألف كيلومتر، في حال تم السير من خلال قناة السويس، في حين أنه لا يتجاوز 14 ألف كيلومتر بين المدينتين عبر طريق القطب الشمالي[9].

لكن، من جهة أخرى، تبقى عقبات الظروفُ المناخيةُ الصعبة، كالصقيع والجليد، والافتقارُ إلى البنى التحتية الملائمة، فلا يزيد موسم الملاحة عن خمسة أشهر في أفضل الحالات، إذ ينحصر بين يونيو ونهاية نوفمبر، ولذلك فإنه في حين شهدت قناة السويس عام 2011 عبور 18 ألف سفينة، عبر من طريق القطب الشمالي 34 سفينة فقط في الفترة ذاتها[10]، وعلى الرغم من أن العام 2013، شهد بعض التحسن، فإن عدد السفن المارة لم تزد عن 71 سفينة[11].

الخاتمة

يبدو أن مستقبل منطقة القطب الشمالي واعدة، غير أنه من الحكمة أيضاً الاتزان وعدم تضخيم ثقل تلك المنطقة في ظل عدم دراسة التحولات المناخية بالقدر الكافي، إذ يذهب بعض العلماء إلى أن الاحتباس الحراري يمكن أن يتحول إلى برودة عالمية، وهو الرأي الذي يتبناه الأكاديمي الروسي يفغيني فليخوف[12].

يضاف إلى ما سبق حقيقة أن تكلفة استخراج النفط والغاز باهظة الثمن في المنطقة القطبية، وهو ما يتطلب توظيف موارد هائلة لاستغلالها، غير أنه في ضوء انخفاض أسعار النفط، تصبح عملية الاستخراج أمراً غير مجد اقتصادياً، خصوصاً بالنسبة لروسيا التي يعاني اقتصادها من آثار العقوبات الاقتصادية، والانخفاض العالمي لأسعار الطاقة، وتدفع هذه العوامل مجتمعة إلى إبطاء عملية استغلال ثروات المنطقة الشمالية.

ولهذه الأسباب أيضاً، تبقى مخاطر اندلاع صراع مسلح أمراً مستبعداً في المدى المنظور، على الرغم من الاهتمام المتصاعد بالمنطقة، ومع ذلك، فإنه من المرجح استمرار التنافس الدولي على المكاسب الاقتصادية في تلك المنطقة، مع سعيها في الوقت عينه إلى التوصل لتفاهمات فيما بينها، خاصة أن سياسة الخطوات الأحادية، التي غالباً ما تعتمدها الولايات المتحدة الأمريكية، لن تكون مجدية في تلك المنطقة، ولذلك يجب التركيز على أهمية التعاون، وهو ما يتضح في تأكيد الرئيس فلاديمير بوتين ضرورة أن تكون "منطقة القطب الشمالي أرض الحوار"[13].

1- Observers, **Arctic Council Website**, 27 April 2011, accessible at: http://goo.gl/Ewna5H

2- تحليل خبراء المجلة، مع من المعركة على القطب الشمالي؟، **مجلة "نفط روسيا"**، 18 سبتمبر 2014، موجود على الرابط التالي:http://goo.gl/TIE3IG

3- Circum-Arctic Resource Appraisal: Estimates of Undiscovered Oil and Gas North of the Arctic Circle: U.S. Geological Survey, **USGS website**, 2008, accessible at: http://pubs.usgs.gov/fs/2008/3049/fs2008-3049.pdf

4- منطقة الشمال القطبي في منظومة العلاقات الدولية والمصالح الوطنية لروسيا، **مجلة "قضايا الاستراتيجية القومية"** (المعهد الروسي للدراسات الاستراتيجية)، العدد 5، أكتوبر 2014، ص 12.

5- اكتشاف القطب الشمالي. مجلة مجمّع الطاقة والوقود في روسيا، **مديرية الإرسال المركزية في وزارة الطاقة الروسية**، (ص. 20)، 2/2/2012، موجود على الرابط التالي: www.cdu.ru

6- تصريحات وزير الخارجية الروسية سيرغي لافروف، **الموقع الرسمي لوزارة الخارجية الروسية**، 09.12.2014، موجود على الرابط التالي: http://www.mid.ru/brp_4.nsf/newsline/4B6A1101EB552C6CC3257DA90036A329

7- روسيسكايا غازيتا، بوتين صدّق استراتيجية تطوير منطقة الشمال القطبي لروسيا الاتحادية حتى العام 2020، 20/2/2013، موجود على الرابط التالي: http://www.rg.ru/2013/02/20/strategia-anons.html

8- Robert Farley, The Ultimate Cold Warrior: 5 Weapons Russia could use in an Arctic War, 4/12/2014, **The National Interest**, accessible at: http://nationalinterest.org/feature/the-ultimate-cold-warrior-5-weapons-russia-could-use-arctic-11784?page=2

9- اكتشاف القطب الشمالي. مجلة مجمّع الطاقة والوقود في روسيا، **مديرية الإرسال المركزية في وزارة الطاقة الروسية**، (ص ص 28 – 29)، 2/2/2012، موجود على الرابط التالي: www.cdu.ru|

10- اكتشاف القطب الشمالي. مجلة مجمّع الطاقة والوقود في روسيا، **مديرية الإرسال المركزية في وزارة الطاقة الروسية**، (ص ص 28 – 29)، 2/2/2012، موجود على الرابط التالي: www.cdu.ru|

11- منطقة الشمال القطبي في منظومة العلاقات الدولية والمصالح الوطنية لروسيا، **مجلة قضايا الاستراتيجية القومية** (تقرير المعهد الروسي للدراسات الاستراتيجية)، العدد 5، أكتوبر 2014، ص 15.

12- يفغيني فليخوف، "الشمال القطبي: موضوع جدير بتوظيف الجهود"، **مجلة "نفط روسيا"**، 14/9/2014، موجود على الرابط التالي: http://goo.gl/SNTPyR

13- خطاب الرئيس فلاديمير بوتين في الجلسة العامة للمنتدى الدولي الثالث للشمال القطبي، "الشمال القطبي: أرض الحوار"، 25/9/2013، موجود على الرابط التالي: http://goo.gl/PO5lA1